مقالتان للاستاذ الامام (١)

(مقتبستان من دروس السيد جمال الدين وقد نشرهما في العدد ٤٩ من جريدة مصر التي كانت تصدر بالاسكندرية في ٥ جمادالاولى سنة ١٢٩٦)

المقالة الأولى ـ التربية

في ليلة الأحد الماضي انعقد درس الاستاذ جمال الدين الافغاني وانتظم في سلكه جم غفير من نبهاء طلبة العلم وفضلائهم وكثير من الافندية مستخدمي الدواوين وبمحضر هؤلاء وأولئك شنف المسامع بمقال جليل في شأن تربية الامة وما يلزم ان يسلك من سبلها ولما فيه من عظم الفائدة رغبت في نشره في الجرائد الوطنية تعميما للفوائد وبيانا لما انطوى عليه من حسن المقاصد قال ما معناه:

اذا وجه العقل نظر الاعتبار الى الاجسام الحية بالحياة النباتية أو الحيوانية أو الانسانية علم ان قوام حياتها بتفاعل العناصر الداخلة في قوامها تفاعلا متناسبا بحيث لا يتميز أحد تلك العناصر بالغلبة على باقيها غلبة تقتضي بظهور خواصه وتسلطها على خصائص البقية فبذلك التناسب يتم للبدن الحي ما يسمى بالمزاج المعتدل الحامل لروح الحياة فإن غلب أحد العناصر على سائرها واضمحلت خواص بقيتها فيه انحرف المزاج وخرج عن حد الاعتدال واستولى المرض على الجسم وكما يكون الاختلال وفساد البنية بتغلب بعض العناصر على ما سواه منها كذلك يكون بمغالبة المزاج للحوادث الخارجية وغلبتها عليه كالبرد الشديد المذهب لروح الحرارة الغريزية والحر الشديد الموجب للاحتراق وتحلل الرطوبة الضروريه المنتهي الى اليبس فنير الموت والفناء

ومن ثم وضعوا علوم النباتات والحيوانات والطب البشري والبيطري ليبحث في تلك العلوم عما به يحفظ التوازن بين البسائط التي يتركب منها الجسم ويحترز من تسلط الحوادث الخارجية عليه ويعاد به المزاج الى حالة الاعتدال ان خرج عنها لتتم حكمة الله تعالى في بقاء الانواع الى آجالها المحددة بحكم الحكمة الأزلية فالنباتيون يعينون الاراضي القابلة للزراعة والغراسة لكل نبات ويحددون الفصول الملائم هواؤها لنموه ويوضحون مواد التسميد وغير ذلك مما لا بد منه في تربية

(١) منقولتان من الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام الذي يطبع الآن وهما من أول ما كتبه

النباتات وكذلك الاطباء يبحثون عن مواد الاغذية وما ذا يجب ان يتخذ منها لكل مزاج ومضار الأهوية ومنافعها ويقفون بتجاربهم الصادقة على الادوية النافعة لرد البدن الى حالة الصحة وآلات العلاج المفيدة حتى تحفظ بذلك على البدن صحته ويرجع اليها ان انحرف عنها ولن يكون الطبيب طبيبا يترتب عليه غايته حتى يكون على علم بالتاريخ الطبيعي وعلوم النباتات ليعلم خواصها، ويميز نافعها من ضارها، وعلى بصيرة من اختلاف الامزجة ومقتضياتها وما يلائم كل واحد على حسبه وخبيرا بعلل الامراض وأسبابها وكيفياتها من شدة وضعف وتاريخها من قدم وحدوث حتى يعالج كلاً بما يليق به فإن جهل من ذلك شيئا كان فقده خيرا من وجوده فإن الطبيب الجاهل رسول ملك الموت اذ بجهله يستعمل من الأدوية ما عساه يهيج المرض ويعين من الاغذية ما يساعده على قسوته فيفضي ذلك الى هلاك المريض وقد كان بدونه محتمل الشفاء بمقاومة الطبيعة لولا مساعدة الجاهل وعونه. وكما يلزم للطبيب ان يكون عالما بجميع ما قدمنا يجب ان يكون شفيقا رحيما صادقا أمينا لا يكون قصارى عمله ما يناله من جُعل المعالجة فإنه ان كان قسيا عديم الرأفة أو كان خائنا فربما صار آلة في أيدي اعداء المريض يستعملونه لهلاكه بإلقائه السم في الادوية مثلا أو اهماله في العلاج بما يقدمونه اليه من العرض الفاني وكذلك ان قصر همه على ما ينال من الدينار والدرهم فإنه ان كان على تلك الصفة لم يكترث بحال المريض مادام يوفّى أجر عمله فإن هلك فقد نال ما يزيد عن مكافأته وان امتد المرض زاد الايراد بتوارد الاوقات فعدمه أيضا خير من وجوده

وكما ان روح الحياة البدني انما يستقر حيث تجتمع أصول متضاربة ينشأ من تقابلها مزاج معتدل كامل وبغلبة أحدها يفسد التركيب ويذهب الروح الحيوي من حيث أتى كذلك روح الكمال الانساني انما يكون حيث تجتمع أخلاق متضادة وملكات متخالفة يقوم من تضادها وتخالفها حقيقة الفضيلة المعتدلة التي هي ركن بيت سعادة الانسان وعليها مدار حياته الفاضلة فإن تغلب أحد الخلقين على الآخر فسد نظام الفضيلة واستحكمت الرذيلة وبات شقيا سيء الحال وسقط في مهواة التعب والعناء المفضيين الى الحين والهلاك. ألا ترى ان النفس الانسانية

لابد لها من خلق الجرأة وخلق الخافة وهما متضادان ومن مقاومتهما على وجه معتدل بحيث يستعمل كلا فيما يليق به من المواقع تحقق فضيلة الشجاعة التي لو فقدت بتغلب الخافة لكان فاقدها عرضة لتحدي جميع الحيوانات عليه ولم يستطع عن نفسه دفاعا وكانت حياته تحت خطر يتهدده في جميع أوقاته ولو ان الجرأة تغلبت على الخافة حتى ذهب أثرها كانت فجورا وعدم اكتراث بالمهالك لحق ولغير حق بدون تبصر ولا مراعاة حكمة فيلقي بروحه في مهاوي الهلكة بلا طائل يعود على نفسه أو وطنه. وكذلك لابد من خلق الامساك والبذل وهما متخالفان متعارضان يتقوم من تغالبهما في النفس فضيلة السخاء وهي البذل في موضع الاستحقاق اذا اعتدلا ولو ان الامساك تغلب على ضده حتى اضمحل فيه لامسك عن قضاء لوازمه الضرورية فلا يأتي باللائق من الاغذية والالبسة مثلا فيضر ببدنه ولم يوف بحقوق مشاركيه في المعيشة كزوجته وولده أو في التعامل كجيرانه وأهل بلده فيقع الشقاق بينهم ويتأدى به الى شقاء دائم وغير ذلك من مفاسد البخل التي لا تنحصر ولو تغلب البذل لأنفق جميع ما يده في المفيد وغير المفيد حتى يصبح فقيرا لا يجد ما ينفقه في ألزم لوازمه فيهلك وهكذا جميع الملكات الفاضلة الانسانية انما هي واسطة للطرفين متضادين لابد من ظهور أثر كل منهما على نسبة معتدلة وبغلبة أحدهما على الآخر يختل نظام الفضيلة ولا محالة ينهدم بيت السعادة دنيوية كانت أو أخروية ولا يسعنا المقام لتفصيل ذلك. وكما يقع العناد بتغلب أحد الضدين على الآخر في النفس يقع أيضا بتغلب أمر خارج على مزاج الفضيلة كغلبة التربية الفاسدة المغذية للعنصر الفاسد بمخالطة ذوي الملكات الرذيلة والغرائز الناقصة وانفعال النفس بحركاتهم وسكناتهم وتقليدها لاعمالهم وتقلدها بعاداتهم أو باستماع إغواء ذوي الاهواء وتمويهات أرباب الاغراض الفاسدة الدنيئة المذيعين للافكار الرديئة المؤيدين للعقائد الباطلة التي ينبعث منها سوء الاخلاق المؤدي الى فساد المعيشة فللنفوس علل وأمراض كما للابدان ذلك

ومن ثم قد وضعت علوم التربية والتهذيب لتحفظ على النفس فضائلها وتردها عليها ان اعتلت وانحرفت عنها الى جانب النقص والاعوجاج كما وضع الطب

ولوازمه لحفظ صحة البدن كما بينا فالحكماء العاملون القائمون بأمر التربية والارشاد وبيان مفاسد الأخلاق ومنافعها وتحويل النفوس من حالة النقص الى حالة الكمال بمنزلة الاطباء وكما لزم للطبيب أن يكون عالما بالتاريخ الطبيعي والنباتات والحيوانات وعلل الامراض وأسبابها ودرجاتها من شدة وضعف كذلك يلزم للحكيم الروحاني طبيب النفوس والأرواح اذا رقي منبر الارشاد ان يكون عالما بتاريخ الامة التي قام بإرشاد أبنائها وتاريخ غيرها من الامم أيضا وأن يكون مطلعا على درجات ترقيها ودركات تدنيها في جميع الازمان وان يسبر أخلاقها بمسبار الحكمة ليعلم أسباب أمراضها النفسية ويقف على درجات الداء وتمكنه فيهم وأنه حديث أوقديم قوي في النفوس أوضعيف وماهو العلاج اللائق بكل صنف. وكما انه يجب على الطبيب البدني ان يكون على علم تام بمنافع الأعضاء وغاياتها كذلك على الطبيب الروحاني ان يكون عالما بمنافع الأخلاق ومضارها على طبق مافي نفس الامر والواقع. وكما يلزم ان يكون الطبيب شفيقا رحيما صادقا أمينا لا ينظر الى الدنايا ولا ينحط الى المقاصد السافلة كذلك على النصحاء والمرشدين ان يكونوا من ذوي الاستقامة والفضيلة مرتفعي الهمم أولي مقاصد عالية لا يبيعون الفضيلة بحطام الدنيا ولا بالقرب والتزلف الى الامراء والكبراء

أولئك هم المرشدون الحقيقيون فان رزقت الامة بمثلهم فبشرها بالسعادة وان رزئت بمطببين لا أطباء، بأن صعد على منابر النصح فيها الجهلة والاغبياء، والسفلة والادنياء، فأنذرها بالعناء والشقاء، فإن المرشد الضال والناصح الجاهل يودع النفوس رذائل الاخلاق باسم أنها فضائل ويغرس فيها جراثيم الشر باسم أنها أصول الخير ولربما كان مقصده حسنا ولا يريد الا خيرا ولكن جهله يعميه عن سلوك طريقه ويبعده عن اتخاذ وسائله فتقع الارواح في الجهل المركب وهو شر من الجهل البسيط فإن ذا الثاني على باب الفضيلة لا يلبث ان فتح له ان يلجه وصاحب الاول قد بعد عن المقصد بمراحل واستتر تحت نقع الرذيلة واعتقد ذلك ظلا ظليلا فلا يمكن العدول عما وقع فيه الا بعد مكابدة شديدة وعناء طويل فلا ريب كان عدم هؤلاء المرشدين خيرا من وجودهم وكذلك ان كان خائنا أو دنيئا ينحط الى سفاسف الامور أو عدم

الشفقة والانسانية فإنه يتخذ النصيحة سلما للوصول الى اغراضه الفاسدة ومطالبه الدنية فلا يبالي أوقع الافراد في خير أو شر، صفت النفوس أو تكدرت، ارتفعت الآداب أو انحطت، صحت الارواح أو اعتلت، فيكون آلة بيد الاشرار وأولي الاهواء يستعملونه في فساد الامة والمشيرة لقضاء أوطارهم

الا وان القائمين بأمر الارشاد ينحصرون في قبيلين قبيل الخطباء والوعاظ وقبيل الكتبة والمصنفين ومنهم أرباب الجرائد فإن كانوا على نحو الاوصاف الكاملة اللازمة لمقامهم هذا كما تقدم فقد استحقوا التعظيم والاحترام، والتبجيل والاجلال، واستوجبوا الشكر والثناء من كل قلب مخلص وقاموا بخدمة أوطانهم وأبناء بلدتهم وإلا استحقوا الرفض والطرد والابعاد ووجب على من يهمهم أمر الاصلاح ان يقذفوا بهم من البلاد كي لا يفسدوها بمرضهم الوبائي الذي لا يقتصر ضرره على المبتلى به بل يتعداه بالسراية الى كل ما سواه

المقالة الثانية ــ الصناعة

قد عاد حضرة الاستاذ الفاضل والفيلسوف الكامل السيد جمال الدين الأفغاني الى التدريس بعد فترة تزيد مدتها عن سنة فابتدأ حفظه الله يقرأ شرح إشارات الرئيس ابن سينا في الحكمة العقلية وهو كتاب جليل يحتوي من هذا العلم أصولا جليلة غرست أصولها في بلاد المشرق من مدة تقرب من ألف سنة الا انها نبتت فروعها في المغرب واجتنيت ثمارها لغير غارسيها ولم تزل في بلادنا على كليتها واجمالها لم تخرج نتائجها العقلية من حد القوة الى الفعل الا أن هذا السيد الفاضل قد جمع في تدريسه بين تدقيق الشرقيين وبسط الغربيين يجمع الى الاصول فروعها والى المقدمات نتائجها والى المجملات تفاصيلها بانيا جميع أقواله على البراهين الثابتة والحجج القوية ولما كانت دروسه العالية عظيمة الفوائد جمة الثمرات للعموم رأيت من الواجب قياما بالخدمة الانسانية ان أودع بعضها قوالب العبارات اللائقة بها وانشر طيب وفدها في صحف الجرنالات لتعم الفائدة والله يتولى التوفيق

بيّن حفظه الله وأثبت ان الانسان نوع من أنواع الحيوانات الارضية